حول البطولة في الأدب العربي بعد ظهور الإسلام

بقلم
الدكتور صدقي خليفة

اود ان اقول اولا ، ان موضوع (البطولة في الادب العربي منذ صدر الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية) لا يمكن ان يستوفى في محاضرة كهذه ، بل ولا في محاضرات قليلة . فالفترة التي يشملها البحث تنيف على ستة قرون ، حافلة بالنشاط الاجتماعي ، مليئة بالنشاط الفكري ، فياضة بالنشاط الادبي الذي صور وجوها مختلفة من الحياة ، وعرض جوانب متباينة من مغاليات الفكر والمجتمع . بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان هذه الفترة الطويلة من تاريخ المجتمع العربي ، او الاسلامي عموما ، هي اعقد فترات حياته واكثرها اضطرابا . وهذا التعقيد يتمثل واضحا في العلاقات الاجتماعية القائمة بين افراده وفي تكوينه الطبقي كما يتمثل في طبيعة الكتل الاجتماعية فيه . وكان لكل من هذه الكتل آمالها وامانيها واهدافها في الحياة . وبما ان فكرة البطولة نفسها مرتبطة اوثق ارتباط بالتركيب الاجتماعي ، فان بحثها في مجتمع متطور مثل هذا المجتمع يتطلب مزيدا من الجهد والتدقيق ، ومزيدا من البحث والتتبع لا اعتقد ان المجال يتسع لها الان . واذا اضفنا الى ذلك ان ظروفنا الخاصة في العراق لم تسمح لنا بالتهيؤ الكافي للمؤتمر والتفرغ التام للبحث ، فقد ابتلعت وقتنا المشاغل واستأثرت باهتمامنا الواجبات ، اقول ، اذا اضفنا الى طبيعة الموضوع هذه الظروف الخاصة جازلنا ان نطلب المعذرة لعدم ايفائنا البحث حقه واعطائنا الموضوع ما يستأهل من سعة وعمق ، واقتصارنا على وضع الخطوط العامة لفكرة البطولة وتطبيقها على وضع المجتمع الاسلامي في صدر الاسلام . اقول لما مر من الاسباب سنقصر بحثنا على تحديد الخطوط العامة للبحث وتوضيح الاساس العلمي الذي يجب ان ترتكز عليه مثل هذه الدراسة . وسنجد اننا ،لكي نرى البطولة تنعكس في ادب عصر من العصور ، لا بد لنا من الغوص في اعماق المجتمع ودراسة تركيبه وتتبع تياراته .

ان فكرة البطولة كأية فكرة اخرى ، كالخير والشر ، كالصلاح والفساد ، كالخلاص والخيانة ، تنبثق من الواقع الاجتماعي والاقتصادي وتنشأ عنه ، ثم تؤثر فيه بعد ان تصبح حقيقة مادية (بالمعنى الفلسفي للكلمة) بعد انتصبح حقيقة مادية لها وجود محسوس وواقع ملموس . وما البطل الا ذلك الفرد الذي تتمثل فيه رغبات وآمال مجموع من الناس ، ما البطل الا ذلك الفرد الذي يدرك باحساسه المرهف وذكائه الوقاد وعبقريته النادرة مطامح مجتمعه وامانيه فاذا به في طليعة من يسعى لهذه المطامح ويكافح لتحقيق هذه الاماني ، ما البطل الا ذلك الفرد الذي يرى فيه الاخرون ما كانوا يبحثون عنه وما يتوقون للحصول عليه .

نعم ان البطل هو ممثل اماني المجموع وطليعتهم في كفاحهم من اجل مثلهم العليا واهدافهم السامية ، ومن الطبيعي ان ينبثق البطل من اعماق المجموع بعد ان يتمثل باحساسه المرهف وادراكه العميق كل احاسيس المجتمع الذي هو فيه ، ويستوعب افكاره وحاجاته وآماله. فالشعوب تخلق ابطالها والمجتمعات تلد قادتها وزعماءها .

صحيح ان هناك ابطالا لا يحتلون منزلتهم في نفوس مواطنيهم الا بعد زمن قد يطول او يقصر ، لانهم قد تقدموا الاخرين في ادراكهم ، فلا يلحق بهم ولا يفهمون الا بعد ان تكون حياتهم قد انتهت واجلهم قد فات ، ولكن ذلك لن يغير شيئافي طبيعة الطولة وعلاقتها بالمجتمع .. لن يغير في حقيقة ان المجتمع يخلق ابطاله . ولن ننسى هنا ابدا دور العبقرية الفردية والابداع الذاتي للافراد انفسهم الذين تسلموا عروش البطولة ولبسوا تيجانها ..

ولا شك في اننا لا نتفق على معنى البطل ، وعلى ما ندركه من كلمة بطولة ، فهناك من يفهمها على انها الجرأة ، او ان شئتم فلنسمها الشجاعة والقيام بالاعمال الخارقة واجتياز العقبات . واذا قبلنا بهذا المفهوم للبطل ، فيترتب على ذلك ان نجرد معنى البطولة من المضمون الفكري ، وان نجعلها مجرد شكل من اشكال السلوك الفردي ، ويترتب على ذلك ايضا ان تقديرنا للبطولة سيكون تقديرا فرديا صرفا ، تقديرا لهذا الشخص او ذاك سواء اكان مصيبا ام مخطئا ، سواء اكان يسعى للشر ام للخير ، سواء اكان عاقلا ام مجنونا . ونظرة مثل هذه للبطولة لا يمكن قبولها مطلقا في رايي ، اذ يتساوى فيها المجرم والشريف ، يتساوى فيها المفسد والمصلح ، يتساوى فيها دعاة الرجعية ودعاة التقدم .

ان البطولة ايها السادة ، ليست نوعا من السلوك فحسب ، انها ليست صفة لاعمال جريئة يقوم بها هذا او ذاك من الناس . انها اعمق من ذلك بكثير ، فهي فكرة وعمل ، بل انها اكثر من ذلك : فكرة نبيلة وعمل جبار ، البطولة ، ايها السادة ، ضد الشر ، ضد الفساد ، ضد الرذيلة وضد الرجعية على وجه الخصوص ، لانها بطبيعتها تقدمية .اذا كان لا بد ان اوضح معنى « الرجعية » فاقول : ان ركنها الرئيسي هو عدم الايمان بالتطور ، والتشبث بان (ليس في الامكان احسن مما كان)» كل ذلك حفظا للمصالح القائمة والتشبث بالاوضاع الفاسدة التي تخدم الاقلية دون الاكثرية ، وتقف في سبل تمتع ابناء المجتمع بامكانيات الحياة . ولذلك فان اول ركن من اركان البطولة هو الايمان بالتطور ،الايمان بضرورة تحقيق شيء جديد فيه الخير للمجتمع ، او الايمان بمثل اعلى يفيد الاخرين . والركن الثاني لها هو العمل الدائب الجريء الحكيم لتحقيق هذا الخير او هذا المثل الاعلى ، والاستعداد للتضحية في سبيل ذلك .

وليست التضحية هنا ان يستعد الانسان للانتحار ، وانما ان يضحي بمصلحته الخاصة في سبيل مصلحة المجموع وان يقدم نفسه ذاتها ان كان ذلك يعود بالخير على الاخرين . وهكذا فالبطولة كما قلت فكرة

وعمل ، وسنرى امثلة واضحة على ذلك في تاريخ المجتمع العربي.

لقد دفعت الصحراء الشحيحة سكانها الى حياة البداوة ، وحياة الرعى ، حياة التنقل والارتحال والبحث وراء العشب والمرعى . ومن الطبيعي جدا ان يكون مرعى القبيلة او حماها ملك القبيلة كلها ، تدافع عنه باستماتة واستبسال ، اذ لن يتيسر لها العيش او تستطيع الحياة دون ذلك . ولذلك كان لابد لافراد القبيلة ، هذا المجتمع البدوي الصغير، ان يتكاتفوا ويتساندوا ويتعاونوا على السراء والضراء ، ففي هذا التكاتف والتساند والتعاون حياة القبيلة ، او ان شئت فقل حياة كل فرد فيها . فعز القبيلة عز افرادها ، وذل القبيلة ذل اعضائها ، ورفاه القبيلة رفاه ابنائها ، وعسرها عسر لكل واحد فيها . وهكذا ارتبط الفرد بالقبيلة واحتضنت القبيلة الفرد ، واصبحت مصلحة القبيلة وخيرها هي مصلحة كل فرد من ابنائها ، فهي التي توفر له سبل العيش بدفاعها عن حماه ، وهي التي تحفظ حياته باصرارها على الثأر ممن يعتدي عليه ، وهي التي تؤويه ان ضاقت به السبل ، ومن هنا نشأت العصبية القبلية ومن هنا اصبحت القبلية سيدة المجتمع البدوي .

فمن هو البطل في نظر القبيلة ؟ .. انه ذلك الذي يذود عن حماها ، ويحمي ذمارها ويرفع شأنها ويبني مجدها ويكافح لاجل بقائها ، انه المغوار الذي لا يكل عن القتال ولا يرتد عندما تدلهم الخطوب ، انه كما يصفه تأبط شرا في وصفه لنفسه عندما يقول : ـ

ولا اقـــول اذا ما خلـة صرمت ... يا ويح نفسي من شوق واشفاق
لكنما عولـــى ان كنـت ذا عـول ... على بصير بكسب الحمد سبـاق
سباق غايات مجد في عشيرته ... مرجع الصـوت هـدار بآفـاق
حمال الوية ، شـهاد اندية ... قوال محكمة جـواب افـــاق
فذاك همي وغزوي استفيث بـه ... اذا استغثت بضافي الراس نفاق

او كما يقول الفارس البدوي عامر بن الطفيل : ـ

لقد علمت عليا هوازن انني ... انا الفارس الحامي حقيقة جعفر
وقد علم المزنوق اني اكـره ... على جمعهم كر المنيح المشهر
اذا ازور من وقع الرماح زجرتـه ... وقلت له ارجع مقبلا غير مدبر
وانبأته ان الفرار خـزاية ... على المرء ما لم يبل جهدا ويعذر
وقد علموا اني اكر عليـهم ... عشية ضيف الريح كر المدور
وما رحت حتى بل نحري وصدره ... نجيع كهداب الدمقس المسير
اقول لنفس لا يجاد بمثلهـا ... أقلي المراح انني غير مقصر

ولكن المجتمع البدوي كله كان يعاني من نظامه ما يعاني من عنت وبؤس.

كان يقاسي الامرين من هذا التطاحن بين القبائل، والتناحر بين هذه المجموعات البشرية التي تربطها كثير من الصلات .. لقد كانت هذه العصبية القبلية التي حفظت لكل فرد وجوده ، وبالا على المجتمع كله وشرا حتمته ظروف الحياة وفرضته اساليب العيش في تلك الصحراء القاحلة .

لذا فان كان بطل القبلية هو الذي يدافع عن كيانها ويحمي ذمارها ويحفظ لها وجودها ويرفع شأنها وينكل باعدائها ، فان البطل الحقيقي للمجتمع الجاهلي لم يكن بهذه الصفات .. ان البطل الحقيقي الذي كان ينتظره المجتمع العربي قبل الاسلام ، سواء شعر بذلك افراده او لم يشعروا ، كان يختلف تماما عن بطل القبيلة هذا ، بل انه كان بعيدا جدا في صفاته عنه ... انه لم يكن ذلك الذي يحفظ للقبيلة كيانها وينكل باعدائها ويرفع من شانها ويشيد بمآثرها ، بل كان ذلك الذي يزيل كيان القبيلة ويمحو العصبية القبلية ، ويخلق من هذه الكتل المتناحرة والقبائل المتنازعة وحدة متماسكة تربطها مثل عليا مشتركة واهداف مشتركة ، ثم يرسم لها طريق التقدم والرقي ، ويهيء لها امكانية النهوض من هذه الحياة العسيرة المضنية الى حياة اخرى كلها امل وثقة بالمستقبل . هذا هو البطل الحقيقي للمجتمع البدوي قبل الاسلام .. البطل الذي يستجيب لحاجاته ويطمئن رغباته ويحقق آماله ويوجهه الى الطريق الوحيد الذي يؤدي الى المجد الحقيقي والرقي الصحيح . .

وظهر هذا البطل ، ودوت صرخته في وهاد الجزيرة العربية وبطاحها ، فاذا بهذه الكتل البشرية الجبارة تستيقظ : وتشعر بصدى هذه الصرخة تتردد في اعماق نفوسها ، واذا بها تستجيب لها رغم ارادتها وتلتف حول بطلها كتلة متراصة متينة البنيان ثم تتجه نحو العالم لتقوم بدورها في بناء الحضارة الانسانية .

ان من الخطأ ان نقول ان محمدا « ص » فرض نفسه على العرب وانه اخضع الجزيرة بالسيف ، كما يحاول ان يقول بعض المغرضين .. انه كان روح العرب .. انه كان آمال العرب .. انه امانيها .. انه ما كانت تبحث عنه وتتوق للحصول عليه ، دون ان تدرك ذلك تماما .. لقد جاء ليصلح وضعا لا بد ان ينصلح ، وليزيل مساوىء لا بد ان تزول ، ويقيم كيانا يجب ان يقام ،فاستطاع بعبقريته ان يفعل كل ذلك ، استطاع بعبقريته ان يشخص الداء ويعرف الدواء .. استطاع بعبقريته ان يدرك مواطن الضعف ومواطن القوة في المجتمع فيقضي على الاولى ويطور الثانية ... استطاع ان يرشد المجتمع العربي الى الطريق الذي كان بطبيعة وضعه يبحث عنه .

ولم يكن يدرك ذلك من ابنائه سوى طليعته الواعية التي نبع فيها البطل الذي قاد المجتمع العربي كله من الظلمات الى النور ..

وجاء القرآن الكريم ليرسم صورا جديدة للابطال ، لبناة العالم الجديد الذين حملوا على عاتقهم الرسالة الجديدة وساروا يجوبون الافاق ليخطوا بالمجتمع ، بل الانسانية كلها الى الامام . انها صور تختلف كل الاختلاف عن تلك التي كان يصورها الادب الجاهلي لمن يسميهم ابطاله ، اي اولئك المحاربون الاشداء حماة النظام القبلي والمدافعون عنه . ان هؤلاء الابطال الجدد يختلفون عن ذلك تماما ، انهم لا يدافعون عن النظام القبلي بل يحاولون تبديله .. ان انظارهم تتجه الى ذلك العالم السعيد الذي يعيش فيه البشر جميعا اخوانا يسعى كل منهم لخير الاخرين « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عندالله اتقاكم » .

ان ابطال القران الكريم كلهم ابطال ثائرون ، انبثقوا من المجتمع لا ليسندوا النظام القائم ، او يدافعوا عن المصالح القائمة ، وانما جاءوا ثائرين ، يريدون محو ما هو موجود من ضلال وفساد وخلق شيء جديد مستند على اساس فكري جديد ، خلق مثل عليا جديدة . يريدون ان ينفذوا الى العقول والقلوب فيغيروا ما بداخلها ويخلقوا نفوسا جديدة في مجتمع جديد ، ولنضرب امثلة من هؤلاء الابطال ..

فهذا نوح ما كاد يدعو الناس الى طريق الهداية حتى التف حوله ضحايا المجتمع ، وحاربه زعماؤه وسادته « قال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك الا بشرا مثلنا ، ومانراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادىء الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ».

وهكذا الابطال من كل زمان ومكان ، يقاومهم سادة المجتمع الذين

يدعون لانفسهم الفضل وتستجيب لهم الجماهير البائسة التي اضناها الفقر وانهكها الاستغلال ، فلا نكاد نرى ذلك الذي يصرخ بصوتها حتى ستجيب له وتسعى نحوه ، وكم هو رائع قول نوح وهو يجيب على هذا النقد الذي ظل السادة يوجهونه حتى الوقت الحاضر الى ابطال الشعب حين قال « ولا اقول لكم عندي خزائن الله ، ولا اعلم الغيب ، ولا اقول اني ملك ، ولا اقول للذي تزدري اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله اعلم بما في انفسهم ، اني اذن لمن الظالمين . قالوا يا نوح ، قد جادلتنا فاكثرت جدلنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . »

وهذا بطل اخر من ابطال القرآن الكريم ، وهو هود الذي جاء قومه عادا ، الذين وصفهم الله تعالى في القرآن الكريم بقوله « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد . » جاءهم ليخلق منهم مجتمعا جديدا كله خير وصلاح ، فقاومه السادة ، ورفضوا دعوته « قالوا يا هود ما جئتنا ببينه وما نحن بتاركي الهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعترتك بعض آلهتنا بسوء ، وقال اني اشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون » .

وهذا شعيب بطل اخر يرسم صورته لنا القرآن هاديا مصلحا وداعيه لخير ، لا تأخذه في الحق لومة لائم : « والى مدين آخاهم شعيبا ، قال يا قومي اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان اني اراكم بخير واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قومي اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين » . ولكن الغرور يركب سادة قومه ، فيقفون في وجهه ويعرضون عن اقواله « قالوا يا شعيب ، ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز .. » ولكنه يصمد ويكافح رغم كل ما يلقاه من معارضة ومقاومة شأن الابطال الاخرين .

ومثل نوح وهود وشعيب من ابطال القرآن ، صالح وموسى وابراهيم ويوسف وايوب وغيرهم ممن تحملوا اصناف الهوان والعذاب والشقاء في سبيل رسالتهم الانسانية ، فلم تنحن رؤوسهم امام الباطل ، ولم ترتعد فرائصهم امام الظلم ، بل وقفوا صامدين ، مرفوعي الراس ،يدعون الى الحق ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. كانوا ابطالا ثائرين يريدون اقامة صرح جديد للانسانية ، ورسم طريق مستقبل مشرق للبشرية .

ولعل من اروع الصور التي رسمها القرآن الكريم لهؤلاء الابطال ، صورة ابراهيم ، ذلك الثائر الذي وقف شامخ الرأس ، متحديا الظلم والطغيان بعناد واصرار ، غير مبال بمصاعب عليه الحاكمون الطغاة من اضطهاد وتذليل ، وبغى ، حتى لقد القوه بين السنة اللهيب ، ولكن النار عجزت عن القضاء على الايمان ، على الحق ، على الصلاح ، عجزت عن القضاء على تمرد الفضيلة ضد الرذيلة وثورة الخير ضد الشر ، ان كل ما عمله الجبار العاتي المتغطرس كان عبثا امام ارادة البطل الثائر المتمرد على الظلم الداعي لمجتمع جديد ، يختفي منه الجور وتسود فيه المحبة والعدالة .

هؤلاء هم صور البطولة في القرآن الكريم . انه لم يرسم صور ابطال يجيدون الطعن بالرماح والضرب بالسيوف وقتل الناس وتخريب المدن . انه رسم ابطالا يدافعون عن الحياة ، عن سعادة البشر وعن مستقبلهم . وكان محمد «ص» النموذج الاعلى لهؤلاء الابطال .

ولا اظننا بحاجة الى الاشارة الى الادب الذي نشأ مع نشوء الرسالة المحمدية ، ولا سيما شعر عبدالله بن رواحه الذي كان يشيد بالقيم الجديدة ، ويتهم اعداء النظام الجديد بما كانوا يفتخرون به ولم يدركوا قيمة الاتهامات الا بعد ايمانهم بهذا النظام ، فقد كان شعر حسان كما هو معلوم اشد وقعا على قريش من شعر عبدالله لانه كان يهجوهم وفق بعض القيم القبلية التي كانت سائدة قبل الاسلام .

وشهد المجتمع العربي عددا كبيرا من الابطال الذين نذروا انفسهم لرسالتهم السامية ، وساروا الى الامام بعزم لبناء العالم الجديد ، عالم المساواة والخير والعدالة ، مضحين بكل شيء ومؤثرين مصلحة امتهم ومصلحة البشرية جمعاء على مصالحهم الخاصة ، او ان شئت فقل ان مصلحتهم الخاصة اصبحت جزءا لا يتجزأ من مصلحة المجموع فهي لا تتحقق الا بتحققه ، فهذا علي وهذا ابو بكر وهذا عمر وهؤلاء آل عمار وصحابة الرسول وابطال الاسلام في القادسية واليرموك وفي كل ارجاء الارض ، يمثل كل منهم صورة رائعة من صور البطولة الحقة التي سبق ايضاحها في مقدمة هذا الحديث .

وانتقل العرب الى السهول ، وسكنوا المدن واتسعت حضارة العيش فبعد ان كانت مقتصرة على الرعي قبل كل شيء ، اصبحت الزراعة والتجارة هما الاساس الذي يعتمد عليه المجتمع في حياته ، واختلط العرب بغيرهم من العناصر . وقد ادت هذه التبدلات الى تغيير شامل في تركيب المجتمع العربي وفي علاقات افراده بعضهم ببعض . فنشأت طبقة غنية مترفه تملك الاقطاعات الواسعة ، ونمت الى جانبها طبقة تجارية يختلف ثراء افرادها قلة وكثرة تبعا لسعة اعمالهم . والى جانب هؤلاء واولئك وجدت العامة التي تشمل جمهور الحرفيين والعمال والعاطلين وغيرهم ممن يستخدمون قوتهم على العمل لكسب العيش ويكونون الاكثرية الساحقة من سكان المدن ، هذا الى جانب القبائل التي لا تزال قريبة عهد بالبداوة والفلاحين البعيدين عن مراكز الحياة السياسية .

ومن الطبيعي ان يكون لكل من هذه الطبقات مطامحها الخاصة وحاجاتها المعينة التي تختلف وتتباين بل وتتناقض في كثير من الاحيان . فكانت مطامح طبقة المالكين الغنية تتركز في توسيع ثرائها وتدعيم مركزها الاقتصادي والاجتماعي عن طريق استثمارها بالنفوذ السياسي ، او بتعبير اخر ، باستيلائها على زمام الحكم . وقد بدأت بوادر هذه المحاولات بعد وفاة محمد بزمن قصير ، حتى اذا جاء الخليفة الرابع علي بن ابي طالب ، وجد ان من العسير عليه ان يفرض تعاليم الاسلام ومثله العليا نقيه خالصة كما كان ينفذها الرسول ، اذ انتفضت في وجهه هذه الطبقة الغنية الناشئة التي استطاعت تثبيت اقدامها في اجزاء مختلفة من الامبراطورية الاسلامية . وما كاد الاجل يوافيه حتى تبدلت طبيعة الحكم في بلاد المسلمين ، وابتدأ حكم الاسر ذات النفوذ ، وكانت في مقدمتها اسرة بني امية . ومن الطبيعي ان ينشأ بين الاسر الارستقراطية نفسها وفي داخلها نزاع مرير حول السلطة ، وان تستغل كل منها بما لديها من امكانيات لفرض نفوذها في هذا المجال . والى جانب هذه الطبقة الغنية، كانت الطبقة الوسطى التجارية تطمح كما هو حالها في كل زمان ومكان تقريبا الى ثلاثة امور : ـ

الامن والعدالة والسلم ، لتضمن تجارتها وتحافظ على اموالها وتحصل على حقوقها ويتيسر لها الاتصال بالعالم دون خطر يتهددها او حرب تعوق تبادلها البضائع مع غيرها . وكانت كل اهدافها تتحقق بوجود دولة قوية متينة وحكومة حازمة تأخذ بيديها مقاليد الامور وتفرض على الناس احترام القانون .

اما العامة ـ فكان مطمحها الاساسي الحصول على القوت وتيسير وسائل العيش . فاذا سدت امامها الطرق وضاقت بها السبل ، فانها تظل تبحث عن ذلك البطل الذي ينتشلها من البؤس المحدق بها وينقذها من الشقاء القابض على خناقها ، لذا فانها مستعدة لان تكون نارا لكل ثورة وحطبا لكل حركة تمرد .

ولا اريد ان ادخل في تفصيلات تحليل المجتمع الاسلامي فان عملا مثل هذا يتطلب كثيرا من الجهد والوقت لا يتيسران الان . الا ان ما يجب ان اقوله وما يتصل بموضوعنا الان هو ان كلا من هذه الطبقات كانت ترسم لابطالها صورا تختلف تماما عن الصور التي ترسمها الطبقة الاخرى. فكان ابطال الطبقة الحاكمة هم اولئك الذين يقبضون على السلطة بيد من حديد ويحافظون على الوضع القائم ويدافعون عنه بعناد ، وكانت الطبقة الوسطى تحرص على تشبث ابطالها فضلا عن ذلك بالعدل والكرم واحترام الشرائع . وهكذا كانت صور البطولة التي يرسمها شعراء الطبقة الحاكمة للملوك والحكام . فهذا الاخطل وهذا جرير ومن لف لفهما من الشعراء يرسمون لنا في قصائدهم التي قالوها في المديح صورا للحاكمين كما يجب ان يكونوا محاولين ان يخلقوا منهم ابطالا لو تتبعنا صفاتهم لرأيناها انعكاسا لقيم الحاكمين انفسهم ولارائهم في السياسة والادارة ، ولاراء الطبقة الوسطى وتفكيرها ايضا . فقد كانت الطبقة الوسطى مستعدة للالتفاف حول كل ما يحقق لها اهدافها التي سبقت الاشارة اليها في العدل والامن والسلام .

ولكن اعقد الابطال هم ابطال العامة ، لان العامة ، كثيرا ما كانت لا تدرك ما تريد ،ولكن استياءها وعدم رضاها ينعكس بصورة تلقائية في سلوكها ولاسيما في اثناء الاضطرابات ، فتخلق لنفسها ابطالا كثيرا ما كانت تتلاشى بطولتهم عند انتصارهم لانهم لا يكادون ينتصرون حتى يستأثروا بالحكم ، فتتبدد الامال التي عقدت عليهم ، وعندئذ تعود العامة لتبحث عن بطل جديد . واذا كان التاريخ قد شهد في القرن الاول الهجري صورا لم تكتمل لابطال عقدت عليهم آمال العامة ، فان الاحداث التاريخية نفسها تثبت بشكل لا يقبل الشك بان الزمن والظروف لم تكن كما يبدو مهيأة لهم لكي يقوموا بدور البطولة بالمفهوم الذي تحدثنا عنه قبل ، قليل تلك البطولة التي تدرك حاجات الاكثرية الساحقة من ابناء المجتمع فتتمثلها وتستوعبها وتسير من مقدمة المجتمع الى حياة جديدة ونظام جديد .

لقد حاول العلويون وحاول الخوارج وسجل هؤلاء واولئك صفحات مجيدة من البطولة محاولين تهيئة حياة جديدة يسودها العدل والرخاء ، ولكن الظروف لم تكن مهيأة لنجاحهم ففشلوا في تحقيق اهدافهم .

وخابت آمال العامة فظلوا يبحثون حولهم عن البطل المنقذ فلم يجدوه بين البشر المحيطين بهم فتعلقوا بابطال خياليين وانتظروا ذلك الذي سيخرج لهم من اعماق الغيب فيقضي على عناصر الفساد ويحقق العدل ويزيل الظلم وينقل المجتمع من حياة التعاسة والشقاء الى السعادة والرفاه وهكذا ظهرت فكرة المنقذ المجهول او المهدى المنتظر الذي سيستطيع بقوة خارقة ان يحقق الاماني والامال وينشر الامن والسلام . ولكنهم ظلوا ينتظرون كثيرا ، ظلوا ينتظرون قرونا طويلة دون ان يظهر ذلك البطل.

على ان تاريخ الاسلام لم يخل من ابطال حملوا لواء الاصلاح الاجتماعي وكافحوا بعناد واصرار ضد الظلم والفساد . ولكن اصواتهم بحت وذهبت جهودهم سدى ، لان ظروف المجتمع الاسلامي لم تكن مهيأة لمثل هذا الانقلاب ، فان وسائل العيش وتوزيعها كانت دائما تضع الطبقة المالكة الغنية القابضة على ناصية الحكم في وضع قوى سواء في الميدان الاقتصادي ام في الميدان السياسي ، يسمح لها بأن تضرب بعنف كل الحركات التقدمية التي تهدف الى قلب العلاقات الاجتماعية وتهديد مركز الحاكمين الاقتصادي والسياسي . واروع هذه الحركات واكثرها تنظيما هي حركة القرامطة التي قامت في جنوب العراق وشملت مناطق واسعة وكان لها في هذه المنطقة نفسها التي نحن فيها الان اي منطقة البحرين وما جاورها دولة من نوع جديد لم يكن في مقدورها ان تقف صامدة امام اعدائها الكثيرين الاقوياء مدة طويلة من الزمن .

وجاء العصر الحديث ، ونمت الطبقة الوسطى ، ونمت الطبقة العاملة وارتفع الوعي بين الجماهير في المدن والريف ، وانبثق الابطال من اعماق الشعب ، فوجدوا من الجماهير سندا ودعامه فساروا الى الامام وسار الشعب معهم متطلعا الى مستقبل جديد وحياة حرة سعيدة .

صلاح خالص